

الحلقة الواحدة والخمسون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. وصلنا إلى الجزء الأخير من سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تحدث سليمان الحكيم في ختام سفر الجامعة عن كلمات الحكمة التي دونها في هذا السفر. وكيف أنها كالمناخس المؤلمة التي تحذر الناس وتنبههم. وهي مستمدة من الراعي الواحد الذي هو الله. وأن هذه الكلمات صحيحة وراسخة كثبات المسامير أو الأوتاد المنغززة، ولا تتزعزع.

هل سنحت لك الفرصة يوماً مستمعي أن تدخل إلى مكتبة عامة، أو متجر لبيع الكتب؟ وماذا لاحظت؟ ألم تلاحظ وجود الكتب العديدة والتي لا تُحصى؟ فهناك مئات الآلاف من الكتب تصدر يومياً في العالم. ويوجد في العالم اليوم الملايين من الكتب. وقد تقف محتاراً ماذا تقرأ. فهناك الكتب الأدبية والثقافية، وكتب القصص والشعر، والكتب العلمية، والتاريخية، والدينية، والصحية، والسياسية، والاجتماعية، والفلسفية، والمختصة بعلم معين. وغيرها الكثير. ولهذا على المرء أن يحدد سلفاً أي نوع من الكتب يريد أن يقرأ أو يفتني.

لعل السؤال الآن: هل تحب المطالعة مستمعي؟ وهل تعلم أن المطالعة هي أمر هام في حياة الإنسان المتمدن؟ ولهذا نجد الدول المتقدمة تنمي أجيالها الصاعدة على حب المطالعة. فترى الجميع يقرأ بنهم، وبشكل مستمر. أما في مجتمعاتنا العربية فمع الأسف إن عادة المطالعة نادرة جداً. وعلاوة على الكتب يمتلئ عالمان بأديان ومذاهب وفلسفات كثيرة متنوعة. يقف الإنسان أمامها حائراً أياً منها يتبنى. لكن السؤال المهم هو: هل تهتم حقاً مستمعي بدراسة الأديان والمذاهب والفلسفات المختلفة؟ أم أنك تكتفي بما نشأت عليه واعتدت على ممارسته؟

مستمعي الكريم، لقد عالج سليمان الحكيم في ختام سفر الجامعة هذه المعضلة، معضلة وجود الكتب الكثيرة والمذاهب المتنوعة، إذ كتب قائلاً: « وبقي فمن هذا يا ابني تحذر. لعمل (أو تأليف) كتب كثيرة لا نهاية، والدرس الكثير تعبٌ للجسد» (الجامعة: ١٢: ١٢). إن ما أراد الحكيم قوله بهذه الآية في ختام سفر الجامعة، هو أن على الإنسان أن يحذر من البحث المضني،

وتأليف الكتب العديدة التي لا نهاية لها. والسبب لأن الدراسة الكثيرة تجهد الجسد وبدون أية نتيجة أو فائدة. وهذه حقيقة اختبرها الكثيرون في حياتهم، إذ لم يحصدوا شيئاً في النهاية.

لقد سبق لسليمان الحكيم أن تحدّث عن كلام الحكماء الذين استمدوا حكمتهم من الله تعالى، كما رأينا في اللقاء السابق. لكنه هنا نراه يحذّر الشباب خاصة من الانجراف وراء الحكمة البشرية المزيفة، التي تخدع الإنسان، وتبعده عن رؤية الحكمة الإلهية. توجد آراء لا حصر لها عن الحياة، وأديان ومذاهب وفلسفات متنوعة، تدّعي جميعها أنها وجدت لهدف مساعدتنا. ومن الممكن لنا قراءتها ودراستها دائماً، فليس من الخطأ دراستها، إذ هذا هو واجبنا أن نطلع على كل الأفكار المحيطة بنا، والمنتشرة في عالمنا.

لكن ما قصده سليمان الحكيم أن لا ننجرّف وراء هذه الأفكار والمذاهب، وأن لا نُنعب نفوسنا بدراستها المستفيضة. وسفر الجامعة لا يحتقر الذكاء أو العقل والحكمة إذ نراه يقول: « الحكمة خير من القوة... كلمات الحكماء تُسمع في الهدوء... الحكمة خير من أدوات الحرب » (الجامعة ٩: ١٦-١٨)

لكن سليمان الحكيم يعرف في نفس الوقت مدى محدودية العقل والحكمة البشرية في إدراك الحقائق الإلهية. إذ كتب أيضاً قائلاً: « مهما تعب الإنسان في الطلب فلا يجده، والحكيم أيضاً وأن قال بمعرفته لا يقدر أن يجده » (الجامعة ٨: ١٧ب). إذن إن لقدرة الإنسان على المعرفة حدود معينة لا يقدر تجاوزها.

مستمعي الكريم، ماذا أراد سليمان الحكيم بتحذيرنا من الجهد المضني والدراسة الكثيرة؟ لقد أراد توجيهنا نحو المصدر الحقيقي للمعرفة والحكمة الإلهية، ألا وهو كلمة الله الحيّة كما جاءت في الكتاب المقدس. وهو الذي امتدح كلام الحكماء الذين استمدوا حكمتهم من الله، ودعانا لكي نعمل به. إذن علينا أن نضع جهدنا ونصرف وقتنا في دراسة الكتاب المقدس، الذي هو مصدر الحكمة الإلهية الحقّة. ولا نصيغ طاقاتنا في البحث والتنقيب الذي لا طائل منه، ولا جدوى. إن الحياة قصيرة جداً، وعلينا أن نستفيد من الوقت لكي نتعرّف على الحقائق الهامة التي يريدنا الله أن نعرفها ونختبرها.

وعلى الإنسان أن لا يكتفي بما نشأ عليه، إذ قد يكون ما تربى عليه بعيداً جداً عن الحقائق الإلهية التي أعلنها الله لنا في الكتاب المقدس. لكن هذا لا يمنع في نفس الوقت أن نطلع على الأديان والمذاهب الأخرى، لكي نستطيع أن نقابل بين الغث (أوالهزيل) والسمين، والصحيح والخطأ.

فهل تسعى مستمعي لمعرفة ما أعلنه الله لك في الكتاب المقدس؟ لقد أعلن النبي داود في سفر المزامير قائلاً: «سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي» (مزمو 119: 105). أجل فكلمة الله هي السراج الذي يكشف الطريق أمامنا في ظلمة هذا العالم، وهي النور الذي يضيء فنسلك بحسبه.

لقد أدرك الكثيرون من عظماء العالم أهمية الكتاب المقدس على حياتهم. فواظبوا على قراءته يومياً، واستمدوا منه القوة في مسيرتهم. وعلاوة على ذلك إن الكتاب المقدس يبدل حياة الإنسان من الداخل، لأنه كلمة الله الحية التي تجدد قلب الإنسان وفكره. فهل تود مستمعي الحصول على نسخة من الكتاب المقدس؟ لماذا لا تُسرِع وتطلب هذه النسخة من هذه المحطة، فتحصل على أعظم كتاب في الوجود. وفي نفس الوقت تفتح الطريق أمامك لكي تختبر محبة الله، فتحصل على غفران الله لخطاياك، وتحظى بالخلود.